الحدود الشمالية الشرقية من المنطقة القليلة الامطار.

وينفتح القسم الثاني من الكتاب على اربعين صفحة مصورة رائعة تبين جمال المدن والريف وتباينها، واورقة المساجد الرطيبة، وواحة الغوطة الخصيبة، او منظرا يفوق الوصف يبرز جمال الضباب في واد مالت عنه الشمس. ويلي هذا خمسون صفحة من المعلومات الدقيقة عن سوريا، عن جغرافيتها وسكانها، عن تاريخها وسياستها، عن تنوع الاديان فيها، عن اقتصادها، عن الزراعة والتجارة، بل وعن مآكلها التقليدية، وعن علمها، ونشيدها الوطني، وعن انواع النكت التي قد يرويها الدمشقي عن القوم السذج في حمص.

سيثني على السيد جارجي لكتابه هذا كل من عرف سوريا واحبها مثله، وكل من يجد مثله ان شعبها مضياف، وان البقلاوة فيها اشهى مآكل الدنيا.

باتريك سيل

أرضنا الجديدة

بقلم خليل رامز سركيس. منشورات الندوة اللبنانية، بيروت، ١٩٦٢

هذا الكتاب حديث رؤية، فيه لقضايا المصير البشري معاناة مفكر اصيل. وعناصر المعاناة اثنان: عنف لاهوتي عميق الجذور هو من الكيان البشري في الصميم، وضوء عقلي فيه من رصانة العلم اهم مقوماتها. يبدو ان عنصري المعاناة يلتقيان في لحمة غايتها الارض الجديدة في مستوى الصليب.

اول ما في الكتاب ان الانسان محور الكون، الكون الواحد، على ما فيه تعدد العوالم. الانسان اذاً واجب وجود لوعي الحقيقة الكونية والا اصبحت هذه الحقيقة دون قيمة وتعطلت الغاية من خلقها. وثانيا، ان الانسان وجود داخلي، اي وجود لاهوتي، «مخلوق على مثل الاله»، فيه من الاندفاع نحو المعرفة مثل ما في الكون من طاقات مختزنة.

ويلتقي الانسان والكون عبر تجربة المعرفة فيكون العلم، وهذا ليس سوى محاولة من الانسان للتسلط على الطبيعة بعد ادراك نواميسها. وعلى قدر ما يندفع الانسان في معاناة الكون يجب ان يبقى فيه، قويا، وبتكثيف كينوني، حقل اللاهوت، والا اختل توازن القوى فتغيب رؤية الارض الجديدة.

الكون اذاً، دون الانسان، ارض شبه موات. والانسان، دون معاناة الكون، غريب عن نفسه، بعيد عن موطن الله في الارض.

ولأن الانسان قمة الوجود فلا بد له من هجر الارض القديمة التي عشش فيها الحقد والكره والتفرقة، قصد التطلع الى ارض جديدة قوامها مشاركة الكون في وجوده الاصيل عن طريق العقل والقلب معا. وهي مشاركة في الديمومة لو كفت عن وعي ذاتها لاختل نظام الكون. واذ تحصل رؤية الارض الجديدة لا بد وان نشرك فيها الاخرين لما تتضمنه من حقيقة وجمال.

الارض الجديدة هي هذه الارض في مستوى المعرفة والمحبة. انها ارض الكلمة المتجسدة، الارض التي «لا يشارك فيها الا من يؤتى شعورا في مستوى العقل وعقلا في مستوى الحب» والتي «سوف تعمرها شعوب لم يولد معظمها بعد». وليس لهذه الارض الجديدة حدود لانه ليس للمعرفة عند الانسان حدود. «اليس خير ما يسمو بالمعرفة الى ما وراء الكون هو ان سموها نتيجة حتم للايمان بما وراء الطبيعة؟»

ان بابل قمة الكبرياء والانانية في الارض. وهي رمز صارخ لطلاق حدث بين الله والكون. اما اقنوم الارض الجديدة فهو الحب الذي، ان دخل الى العالم، كان ماء الحياة ونقطة التقاء السماء والارض في حوار لم يعط سماعه الا لمن كانت المحبة عنده اقوى من الموت.

على هذا يبدو لنا ان المؤلف قد ارتهن قضية المصير البشري في مداه البعيد، وقضية الانسان في وجوده الشخصي. وهو اذ يجمع بين هذين الامرين انما يعود الى حقيقة الايمان المسيحي – الايمان الذي هو فعل ايمان – والى حقيقة الانسان في عالم مزقته، ولا تزال، تجربة الفقر والموت. لذلك فهو لا يرى في فعل الايمان سوى العدل والمحبة، وفي عالم اليوم سوى عالم تفوده المعرفة الى الجنون ان ابتعد عن جذوره اللاهوتية.

ومما لا شك فيه ان معاناة خليل سركيس هي معاناة صادقة في مضامينها. غير انها لا تزال من قضايا الانسان الحديث اميل الى عدم الأخذ بجميع ما يختلج في جوانحه. هي معاناة في مستوى القلق المصيري. وما قوله ان كل جهد يؤلف كمال العالم، سوى التعبير الصادق عن امر لا يزال عنده في مستوى التجربة الشاملة.

هنا يتخذ الحب كامل ابعاده على اعتبار ان القلق قد استبد بالانسان لجهة مصيره كانسان لا لجهة مصيرة كفرد او جماعة، وهنا ايضا تبلغ التجربة الكونية اعمق جذورها.

يضاف الى ذلك ان جزع المؤلف من تسلط للطاقات الكونية محتمل، مرده الى اعتبار الانسان آية الله في الوجود. وجهل الانسان لهذه الحقيقة يعني ان التاريخ اضحى على تقهقر وان البشر قد كفروا برسالة السماء عندما تجسدت فيهم بالفكر. والدواء الصالح هو في وحدة جهود يبذلها الجميع لتحقيق الوجود الامثل. ان اي عمل يقوم به اي انسان، وتكون غايته هذا الوجود الامثل، هو في الكون على مستوى القداسة. وليست المادة قدرا منحطا اذا ما اعتبرت موطنا للروح ومشاركة لها. «اليس التطور هو ان تقترن الروح والمادة بطبيعة الحياة؟»

ويبدو خليل سركيس هنا وكأنه يعتبر الحياة جوهرا هو غاية ما في الوجود. من هنا الاعتقاد – وعلى سبيل الاستنتاج – ان الانسان قد فجر طاقات الكون وعرّض امنه وطمأنينته للخطر. لكنه عاجز عن تفجير الطاقات الروحية فيه. وقد تمضي سنون طويلة قبل ان يتمكن البشر من حفظ حياة بعد اوان زوالها، او ان يفجروا حياة من نوع جديد على الارض.

من هنا عنف الدفاع عن الانسان وعن قيم الروح في الانسان. ومن هنا كذلك ايمان المؤلف بان الارض الجديدة هي ارض الانسان الذي يحدث، في عالمه، ثورة يكون من مقوماتها ان تضج خلايا المادة بالمضامين الروحية. يرى الناس آنذاك ان نعمة الخلاص قد اعطيت لهم وان افضل عوالم الله قد تحقق وان رسالتهم الجديدة هي في ان ينفخوا الروح المحيية في عوالم اخرى.

الى هذا المستوى من التجربة الكونية يصل خليل سركيس، وقد ادخل الى لغة العرب مضمونا جديدا لم تألفه من قبل. وعلى ما في هذا المضمون من عمق وتشعب يبدو المؤلف وكأنه في ديباجة، يحاول ان تكون مشرقة على قدر اشراقة الارض الجديدة. فلغة العقل عنده على طلاوة ولغة الروح على صفاء. ولا يعني هذا سوى ان تجربته قد اختمرت فكان طعم ثمراتها شهيا.

يبقى ان لنا من ارض خليل سركيس الجديدة عبرة تبقى هكذا ان لم تتحقق الارض الجديدة في لبنان جديد.

جوزف ابو جوده